لقاء حالت دونه جائحة كورونا

تشكيلي ومسرحي يحاربان العزلة بالكلمة والصورة

فجأة توقّف العالم، وعُطّلت عجلة الاقتصاد، وانطلقت أصوات تُحذّر من أزمة تفوق أزمة الكساد الكبير، أرقام الإصابات تجاوزت حتى الآن مليونا ونصف المليون إصابة، والضحايا عشرات الآلاف. وحدهم المبدعون أثبتوا أنهم قادرون على الاستمرار، يحاربون الوباء بالفن، ويزرعون التفاؤل، بينما العالم غارق بالتشاؤم.

علي قاسم
كاتب سوري مقيم في تونس

لن يصعب عليك أن تجده، الدائرة التي يتحرّك ضمنها عندما يكون خارج مشغله، لا يتعدّى قطرها 500 متر، مركزها حانة ومطعم في الطابق الأول لمبنى تحتله في الطابق الأرضي حانة تعرف باسم "المزار". وعلى بعد خطوتين، حانة "النبع" المعروفة بين التونسيين بالاسم الفرنسي (لاسورس).

التونسيون مغرمون بالحانات والمطاعم، وهذا هو حال الفنان التشكيلي الأمين ساسي، فهم يحسنون اختيار أسمائها؛ وفي شارع مرسيليا، وسط العاصمة تونس، أدلة عديدة على ذلك، حيث يجد عشاق الخمارات، من أتباع أبونواس الرافضين للتباكي على الماضي، عشرات الحانات والمطاعم، التي لا تتشابه إلاّ في روادها.

حكيم مرزوقي

لماذا أمارس المسرح، وثمة أماكن تحولني إلى جزء من المسرح

منذ عقدين من الزمن، كان الفضاء الذي يحتل الطابق الأول فوق "المزار" فضاء فنيا، يرتاده الفنانون والموسيقيون، والشعراء والروائيون، ويعرف باسم فضاء بوعبانة، هناك تعرّفت على عدد من أبرز المبدعين في تونس، ومن هناك أيضا نما حبي لبلد التجأت إليه طوعا.

الحبيب بوعبانة، الذي سمي الفضاء باسمه، هو فنان تشكيلي تونسي، أكتفي بذكر ما قاله عنه الناقد عبدالحليم المسعودي "أعاد الحبيب، الذي كان من أوائل الفنانين الذين انسلخوا عمّا يسمى بمدرسة تونس وقوانينها وذوقها ودلالتها الجمالية والاجتماعية، الفن التشكيلي التونسي إلى حالته الأولى، حين يكون هذا التعبير بسيطا وبليغا، وقادرا على القبض على الحالة الإنسانية في أبعادها الكونية، وعلى اللحظة المعيشة في بعدها التونسي المحليّ".

قد يوحي الكلام أن اللقاء الأول الذي جمع بيني وبين الأمين ساسي، كان في فضاء بوعبانة؛ ولكن، رغم زيارات عديدة قمت بها للمكان على مدى سنوات، لم ألتق الأمين هناك.

لا أعلم حتى اليوم كيف ارتبط اسم الأمين بمخيلتي بفنان يُمارس النحت، يحمل تقاطيع وجه قاسي الملامح، وتبرز عروق يديه من كثرة استعمال الإزميل والمطرقة.

التقيت به لأول مرة في حانة "النبع"، التي طالما عبرت من أمامها، دون أن يخطر في ذهني الولوج إلى داخلها، فهي دائما تمتلئ بحشد كبير من الرواد، يصعب تحديد انتماءاتهم الطبقية وفئاتهم الاجتماعية.

كنت بصحبة صديق هجر المسرح، بعد أن حقّق فيه انتصارات عديدة، ككاتب ومخرج وأحيانا ممثلا. كيف لمسرحي نال جوائز عديدة، وعُرضت أعماله شرقا وغربا، وحصدت مسرحيته "إسماعيل هاملت" إعجاب سادة المسرح الإنجليز، الذين منهم خرج شكسبير، أن يبتعد عن الخشبة؟ لطالما تساءلت عن السبب.

كنت أظن أنني قادر على تقديم تلك المعلومة، وذكر هذا الصديق دون أن أفصح عن اسمه، فالحديث عنه مشروع كتاب، ولكن بما أنني ذكرت عنوان مسرحيته، لا بأس من ذكر اسمه أيضا. الصديق الذي كان السبب في التقائي بالأمين ساسي، هو الكاتب والمخرج المسرحي والشاعر حكيم مرزوقي.

لم يتخلّ حكيم عن المسرح، كل ما في الأمر، أن العالم من حوله تحوّل إلى مسرح، يعيش تفاصيله في كل لحظة. في خمّارة "النبع" يتحوّل حكيم إلى مخرج وممثل ومتفرّج، رواد الحانة جميعهم مخرجون وممثلون، حكيم وحده من بينهم متفرّج.

مغارة تمتلئ بالشخصيات الغريبة، بينهم الطبيب، والمحامي، والرسام، والموسيقي، والبائع المتجوّل والمُحتال. ولا تندهش إن اكتشفت أن الشخص الذي يحتسي البيرة إلى جانبك يعمل حانوتيا، أو أستاذا جامعيا.

كان حكيم يقول لي متسائلا "لماذا أمارس العمل المسرحي، وأماكن مثل هذه تُتيح لي أن أتحوّل إلى جزء من المسرح؟".

سؤال مُحرج، لن أجد له جوابا سوى أن أقول "الحاجة للنقود، يجب أن تعيش". وفي كل مرّة أهمّ بالردّ والتطوّع بتقديم الجواب، أتراجع، لمعرفتي أن الفنان يعيش، أولا وأخيرا، للفن وليس جريا وراء لقمة العيش.

في "النبع" تذوب الفوارق، لقد نجح هذا المكان الصغير، في ما فشلت به حكومات وأحزاب. ومع ذلك، لا شيء يُميّز هذه الحانة المتواضعة جدا، سوى نوعية البشر الذين يرتادونها.

هناك تعرفت لأول مرة على الأمين ساسي، الذي حسبته لفترة طويلة نحاتا، وبعد عدة جلسات خاطفة لم يتم الترتيب لها، بل جاءت عفويا، اتفقنا على ترتيب لقاء في مرسمه، للحديث عن تجربته في الرسم، كنت حينها قد عرفت أنه رسام.

فجأة، توقّف العرض المسرحي، بل توقّفت الحياة، ليس في تونس وشارع مرسيليا وخمّارة "العين" فقط، بل توقّف العرض في كل مكان.

كل شيء بدأ بالحديث عن فايروس ظهر في الصين، من مدينة لا نعرف عنها الكثير، انتقل كما يقال من الحيوان إلى الإنسان، والمشكلة أن لا علاج ولا لقاح له.

ما ظننا مجرد إنفلونزا، تكشف لاحقا عن فايروس خطير قاتل يُدمّر الرئتين، وقد يتسبّب إن لم تفلح الجهود المنصبّة على اكتشاف علاج أو لقاح له، في القضاء على الملايين من البشر.

حدث ما كنا نخشاه؛ حجر ومنع تجوّل. كانت أولى ضحاياه المقاهي والحانات والمطاعم. أغلق باب "النبع" بالسلاسل والأقفال الحديدية، وفرغت الشوارع من المارة، حتى القطط، تظهر فقط عندما يجبرها الجوع على ذلك.

اضطر حكيم مرغما إلى التزام منزله، وأكرهته العزلة على العودة للكتابة، وبعد أن وصم طويلا بالكسل، يفاجئنا بفيض من كتابات ترى العالم بمنظار مختلف، هو منظار كاتب مسرحي مبدع في التقاط المشهد وتوظيفه.

لا أعلم إن كانت هي الصدفة، في اللحظة التي وصلت فيها بالكتابة إلى هذا المكان، جاءتني رسالة عبر السكايب من حكيم؛ هي مقال يُؤكّد عودة الابن الضال إلى الكتابة، ويثبت ما قلته حول قدرته على التقاط الفكرة وتوظيفها.

"إيطاليا تحتفي بالكوميديا الإلهية في خضم الجائحة.. معراج ثقافي يُصالح بين الديني والدنيوي في التصدّي لكورونا"، هذا هو المقال الذي كتبه حكيم، شكرا للعزلة المفروضة عليه.

أما الأمين ساسي، أخاله في مشغله، في مكان ما من تونس، وهو بعد أن كان يرى في شارع الحبيب بورقيبة ونهج قلب الضجيج الذي حدث في لبنان والأحداث العاصفة التي كانت فيه، لاحظت أن الجمهور يُريد أن يستمع إلى شيء مختلف. فقُمت بتحضير برنامج موسيقي حيّدت فيه الإيقاع واعتمدت بديلا عنه التشيلو أو الكمان. رحّب الجمهور بالطرح الجديد، مُؤيّدا فكرة ضرورة الاهتمام أكثر بالموسيقى الآلية.. الجيل الذي سبقنا لم يوجد لنا موسيقى مسرحية واعتمد على الغناء. وهذا كما أراه خلل في الموسيقى والغناء العربي يجب العمل على إصلاحه.

وعن مدى قُدرة الموسيقى من إخراج التوترات السياسية والاجتماعية التي يحياها المواطن العربي في أوضاعنا المأزومة، يقول "الموسيقى تجعلنا نبتعد عن الضجيج السياسي، هي بالتأكيد لا تحل المشكلات، وليس مطلوبا منها ذلك، نحن كموسيقيين ليس لنا إلاّ أن نُقدّم الموسيقى وهذه مهمتنا التي وُجدنا من أجلها. نحن نحاول أن نعيد الإنسان إلى إنسانيته".

ويضيف مُستشهدا بما يحدث في بلده لبنان، قائلا "حديثا وفي مرسيليا مصدر إلهامه، يلتقي هناك أصدقاءه، من فنانين وكتاب وشعراء ومهمشين وصعاليك، أعاده الوباء طفلا ينبش في الذاكرة؛ فكل كهل، كما يقول "مسكون بطفل في داخله".

والطفل الساكن داخل الأمين، ترعرع في جنان منوبة، وعاش فوق تربتها وبين أشجارها وعصافيرها برفقة جدّه، يصطحبه صباح كل يوم للصيد.

الآن، بعد أن أصبح الطفل كهلا، لا زالت الذكريات لصيقة بقلبه وعقله؛ وهذا الذي يسميه الناس، الأمين ساسي، ويطلقون عليه لقب رسام، هو نفس الطفل الذي كان يطوي البراري برفقة جدّه، ويعيش الآن بمخزون ذاكرته، وبما تبقّى له من دفئ وحنان، وأيضا عدم اكتراث. حيث كل لوحة "سفر جديد واكتشاف آخر".

جائحة كورونا، أجبرت الأمين ساسي على العزلة، ولكنها فشلت في وقف الذكريات؛ ما زال الطفل القابع داخل الأمين يبدع، وما زال يرسم، بجناحي فراشة، لوحات مليئة بالبهجة والسحر والألوان، وكأنما به، وحيدا، يتكفّل بإلحاق الهزيمة بالوباء.

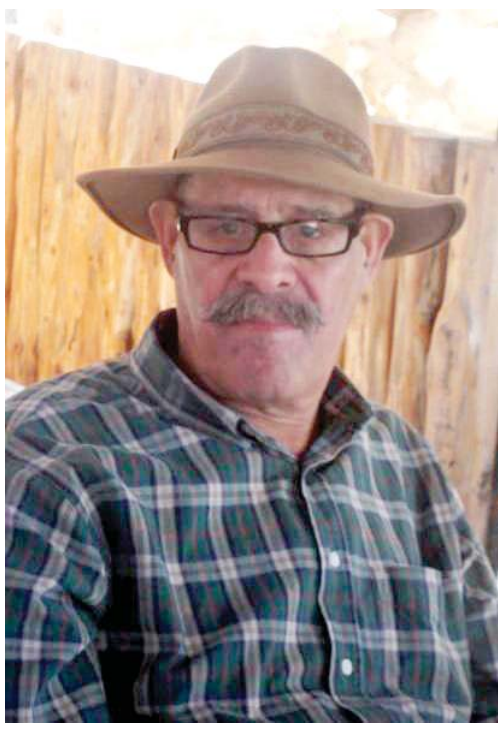

الأمين ساسي يرسم بجناحي فراشة

للفرح عنوان وألوان اسمهما أيقونات الأمين ساسي

مايسترو لبناني يتجاوز الحدود السياسية بالموسيقى

تسلم المايسترو اللبناني أندريه الحاج قيادة أوركسترا الفرقة السمفونية اللبنانية الشرق عربية في لبنان منذ العام 2011، وهو الذي قاد قبلها العديد من الفرق السمفونية العربية في مصر وسوريا وتونس وعُمان، الأمر الذي جعله ينال العديد من الجوائز العربية والعالمية. هنا حوار معه ليحدّث "العرب" عن رؤاه الموسيقية وطموحاته الفنية.

نضال قوشحة
كاتب سوري

أندريه الحاج موسيقي لبناني درس آلة العود واشتهر بالعزف عليها، ومُدرّس في المعهد العالي للموسيقى بلبنان، انتسب في العام 2002 إلى الفرقة السمفونية اللبنانية وتتلمذ على يدي المايسترو الشهير وليد غلمية. وهو أيضا قائد أوركسترا الفرقة السمفونية اللبنانية الشرق عربية في لبنان، كما أصدر مجموعتين موسيقيتين من تأليفه هما "موسيقى بس" و"أماكن".

قدّم المايسترو اللبناني -قبل فرض الحجر الصحي العام على سوريا إثر تفشي فايروس كورونا المُستجد في العالم- حفلا ضمن فعاليات دار الأوبرا في دمشق تحت قيادته، شاركته فيه بصوتها الشفيف الفنانة سمية البعلبكي. عرضٌ عدّه نقاد الفن استثنائيا، فالحضور الموسيقي العربي كان ملمحا هاما في الحفل، والمكان كان دار أوبرا دمشق والفرقة من سوريا، لكن الغناء وقيادة الفرقة لبنانيان ومفردات العرض من كلا البلدين.

وعن ذلك يقول أندريه الحاج قائد الفرقة في الحفل، لـ"العرب"، "من خلال مُتابعتي لما يُقدّم من موسيقى في العالم وجدت أن التعامل الغربي في هذا الأمر يأخذ شكلا متقدما وحضاريا، وهو يقوم على وجود حالة من التفاعل الموسيقي المُستمر بين العديد من بلدانه، فكثيرا ما تعزف فرقة هنا أو عازف هناك، ويكونان من بلد أجنبي، وهذا ما يحمل المزيد من الغنى والتطوّر للجميع. لذلك أردت الاستفادة من هذه المسألة الحضارية وأن أقوم بنقلها للموسيقى العربية بشكل أو بآخر".

أندريه الحاج

لا بد من دعم الخط العروبي بالاشتغال على الموسيقى الشرقية

ويُتابع المايسترو اللبناني "استلمت قيادة أوركسترا الفرقة السمفونية اللبنانية الشرق عربية في لبنان في العام 2011، وبعد فترة من التأسيس، أردت أن أوجد بعض الملامح الجديدة التي تُحقق تقدّما في عمل الفرقة، عندها فكّرت في ضرورة أن نوجد علاقة موسيقية عربية. فبحثت عن الحل ووجدته في المايسترو عدنان فتح الله الذي لم أكن أعرفه سابقا".

ويؤكّد الحاج أن تعارفه مع فتح الله حصل عبر النت، ولم يمنع ذلك قرارهما العمل معا، وهو ما تم فعليا. ويُواصل "حينها زارنا المايسترو فتح الله، وظل في لبنان على امتداد أربعة أعوام متتالية، كان تحديا فنيا كبيرا، نجح فيه".

لاحقا دعا فتح الله أندريه الحاج إلى سوريا، ليُقدّما معا في العام 2009 حفلا بدار أوبرا دمشق، لتتكرّر الدعوات إثرها لقادة موسيقيين من مصر وتونس. وهو الذي يرى أنه لا بد من التفكير في دعم هذا الخط العروبي في تقديم موسيقى عربية تهم الجميع ويحبونها.

ويضيف الحاج "هذا يفيد أولا من حيث التعرّف على البيئة الموسيقية التي ينتمي إليها الضيف، فيتعرّف موسيقيو البلد المُضيف على ثقافته المختلفة وأسلوبه في العمل، كما يستفيدون من الموسيقى التي سيقدمّها، وهو ما يغني معرفتهم الموسيقية".

وعن المزاج الموسيقي الذي يجده في حفلاته العربية ومدى تكامله أو اختلافه مع بيئته الموسيقية الشخصية، يجيب "عندما أتيت إلى سوريا سابقا لم أشعر أنني غادرت لبنان أبدا، كان برنامج حفلي لبنانيا كاملا لأنني اكتشفت أن الجمهور السوري يعرف الفن الموسيقي اللبناني تماما. من القمم الكبيرة أمثال وديع الصافي وفيروز وملحم بركات وإيلي شويري وصولا إلى الأسماء الجديدة. قدّمت حينها مقطوعتين من تأليفي أما الباقي فقد كانت مجموعة أغان لبنانية يعرفها الجمهور السوري ويحفظها". ويضيف "في بلاد عربية أخرى وجدت بعض الاختلاف، لكنه ليس كبيرا، إنما في سوريا فالموضوع مُتطابق. لذلك قدّمت في حفلي الأخير برنامجا طربيا من لبنان ومصر".

وعن مشاريع فرقته في قادم الحفلات يبيّن أندريه الحاج "نقوم منذ فترة بتقديم بعض الأفكار الجديدة منها تكريم أعمال لموسيقيين ومطربين كبار على غرار وديع الصافي، فيروز، توفيق الباشا وآخرون، كما يفعل الإخوة في مصر الذين يُقدّمون سنويا أعمال قاماتهم الموسيقية الكبيرة التي يعرفها كل الجمهور العربي. وسنواصل في هذا الاتجاه، كي يعرف الجيل الجديد مدى روعة ما تركه لنا الجيل القديم من فن معينه لا ينضب".

مؤمن بالشراكة الموسيقية على المستوى العربي